من وحي عروض المهرجان العاشر للفيلم الأوروبي في مؤسسة السعيد

شهدت مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة في مدينة تعز مطلع ديسمبر الجاري فعاليات المهرجان العاشر للفيلم الأوروبي ٢٠٠٦م حيث احتضنت "رواق السعيد" طيلة الأيام الخمسة من ٢-٧ ديسمبر ٢٠٠٦م عرض خمسة أفلام سينمائية من أعمال المهرجان العاشر للفيلم الأوربي.

متابعة/ عبدالله الضراسي

مداخلة مؤسسة السعيد الفنية

في ليلة افتتاح عروض المهرجان الذي حضرته نخبة من المثقفين والفنانين والإعلاميين وعدد كبير من الأجانب كان في مقدمتهم رئيس البعثة الدبلوماسية الألمانية باليمن سعادة الدكتور/ استيفان بوخفالد والدكتورة/ لويزا ماريا إيركو لانلي منسقة المهرجان في تعز عن الجانب الأوربي.

وألقى الاستاذ/ فيصل سعيد فارع الأمين العام لمؤسسة السعيد للثقافة والعلوم "مداخلة فنية" باسم المؤسسة السعيد جاء فيها:

إنه لمن محاسن الصدف أن يأتي هذا المهرجان ونحن على بعد احد عشر عاماً وخمسة وعشرين يوماً من أول عرض سينمائي تجاري في العالم الذي كان في ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥م في الصالون الهندي بالمقهى الفرنسي الكبير وفي شارع "كابوسيني" بباريس/ هذا الحدث الذي ساهم في جعل السينما لغة للتواصل والتي بدورها إلى جانب بقية الفنون البصرية الاخرى نقلت الثقافة الإنسانية من لغة التحرير والشفاهية إلى لغة الصورة، وهي انتقالة نوعية في كل من أسلوبي العرض والتلقي وهو ما طبع كامل القرن العشرين بطابعه وكان واحداً من العوامل التي قادت إلى ماهو عليه عالمنا في لحظته الراهنة من ثورة علمية وتكنولوجية في طورها الثالث واعني عصر المعلوماتية.

واضاف .. ان السينما أو الفن السابع هو ضرب من الابداع الرمزي وفن جامع لفنون عدة لأنه يمزج بين النص والصفورة والحوار والموسيقى التي هي العناصر الأولية المغذية للسينما، ورغم دخول التلفزيون ومزاحمته للشكل التقليدي للعرض السينمائي، إلا أن الفن السابع ما يزال يحظى بذات المكانة العريقة التي كانت عليه.. ومن هنا تأتي أهمية مهرجان الفيلم الأوروبي العاشر في اليمن الذي بلغ في عامنا هذا "الفعالية العاشرة" من عمره التقليدي وانتقل انتقالة نوعية بوصوله إلى حاضرة الثقافة اليمنية "تعز بشراكة مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة مع جانبه المنظم المتمثل باللجنة الاوروبية وسفاراتها في اليمن وكذا وزارة الثقافة وجامعة صنعاء، حيث تم احتضانه هذه المرة ايضاً في تعز، بعد ان كان "قاصراً" عرضه طوال مهرجاناته السينمائية التسعة على مدينتي صنعاء وعدن.

وأشار الأستاذ/ فيصل إلى أن شراكة مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة في تنظيم هذا المهرجان السينمائي المتميز يأتي متسقاً مع نهج متعدد الأوجه أخذت به عند تنظيم انشطتها المتعددة من بينها عنايتها واهتمامها بالفنون بأشكالها المختلفة سواءاً أكانت معارض للفنون التشكيلية أو معارض للصور الفوتوغرافية.

وفي كل ما تنهض به المؤسسة فانها تسعى لزيادة المعرفة وإشاعتها وهو يتأتى عبر عنايتها بالبحث العلمي والابداع وإعلائها من شأن الحوار وتبادل الأفكار والحوار في راهن أيامنا أيها الاعزاء صار أكثر من أي وقت مضى حاجة موضوعية ملحة وبخاصة بين الثقافات والحضارات المختلفة ولهذا أزعم بأن مهرجان الفيلم الأوروبي العاشر يأتي في اطار هذا الفهم وكسبيل مكين لتعزيز العلاقة القديمة مع أوروبا التي تتجدد باستمرار والتي بلا شك ستساهم في تعزيز المسار المتنامي للتعاون العلمي والثقافي بين بلادنا وأوروبا.

خمسة أفلام

تضمن مهرجان الفيلم الأوروبي في دورته العاشرة لهذا العام خمسة أفلام سينمائية حاولت ان تقدم أجمل تقنيات العملية السينمائية الأوروبية وكذا لغتها السردية مع جرأة وجماليات كادراتها السينمائية بغية إيجاد لنفسها "موضع قدم" في صالات السينما العربية واليمنية.

فيلم الافتتاح

كان فيلم الافتتاح لمهرجان الفيلم الأوروبي بمؤسسة السعيد والمعروض "برواق السعيد للفنون" قوياً ومؤثراً وقريباً من ذاكرة الثقافة الانسانية المحبة للسلام، لان فيلم العرض كان المانياً يتحدث عن آخر لحظات في حياة زعيم النازية الفاشل "أدولف هتلر" وكان بعنوان "السقوط" حيث عمل الفيلم السينمائي الألماني ومخرجه الألماني "هيرشبيجل" على رواية "سقوط هتلر" من مذكرات سكرتيرة هتلر "ترادول يونجه" والفيلم من انتاج ٢٠٠٥م ومدته ساعتان إلا ربع .. وهو عبارة عن سينما الدراما الحربية ذات الحس الفني والتقني والبشري الكبير بحكم تجسيده أحداث الحرب العالمية الثانية نهاية١٩٤٥م.

حيث نجح الفيلم السينمائي الألماني من خلال كادراته السينمائية القريبة والبعيدة وموسيقاه العسكرية الصاخبة ومؤثرات العمليات الحربية في تجسيد الأيام الاخيرة للحرب العالمية الثانية كما دونتها "الانسة ترادول يونجه" السكرتيرة الشخصية "لأدولف هتلر" عندما كانت معه في "مقراسه الحربي" ولكونها كانت أكثر المؤتمنين على اسراره داخل مخبئه السري، حيث كانت تعمل على تدوين "تطلعاته العسكرية النازية الفاشلة" لتحقيق انتصاراته النازية على دول الحلفاء وهي الاحلام المستحيلة التي توقفت عندما دخل الجيش الروسي أبواب برلين في ٢ مايو١٩٤٥م معلناً سقوط هتلر ونازيته الفاشلة.

بقية الأفلام

وبعد ذلك عرض الفيلم الثاني وكان بعنوان "ان تكون قبل أن تمتلك" وهو فيلم فرنسي تدور احداثه في مدينة "سانت آتيين" وسط مقاطعة أوفيغن الفرنسية حيث توجد مدرسة بها عدد قليل من الأطفال ومسؤول أحد صفوف الاطفال يدعى "جورج لوبيز" الذي يناديه طلاب الصف "مسيو" يحاول هذا الفيلم ان يتعرض من خلال مخرجه الفرنسي "تيكولافليي" لهموم المدارس الصغيرة الواقعة على سفوح الجبال ويتعرض لنماذج تعليم الاطفال والوسائل التربوية الجديدة للتعليم.

والفيلم الثالث تركي عنوانه :التباعد" ويتحدث عن "مصور تجاري" اسمه "محمود" وهو مصور ناجح يعيش في "اسطنبول" ينتابه شعور بأن فجوة بين تصوراته الفنية وواجباته المهنية بدأت تنمو عنده وزوجته السابقة التي لازال يكن لها بعض المشاعر ولكن بعد زواج "مطلقته" تضاعفت معاناته، وزادت همومه أكثر بعد مجيء الشاب يوسف إلى سكنه.

أما الفيلم الرابع فقد كان بعنوان "البستاني المخلص" انتاج بريطاني وهو نموذج للدراما السريعة ويتحدث عن قصة المؤامرة والقتل والحب من اجل الحياة وأخذت له لقطات من "الطبيعة الكينية" وهو من اخراج نيكولاس فيلا باغ.

أما فيلم الاختتام فهو بلجيكي بعنوان "هوب" يتحدث عن مهاجرين غير شرعيين من أفريقيا قدموا إلى بروكسل.

حديث المشرف

الأخ نشوان نعمان شمسان مشرف فعاليات المهرجان قال:

"كما استمع الحضور الكرام لحفل افتتاح المهرجان فقد عكست كلمة استاذنا فيصل سعيد فارع الأمين العام لمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة فان المؤسسة اقدمت على هذه الشراكة الثقافية والفنية ايماناً منها بمدى ما شكلته ولازالت السينما كفن سابع خطير بل من أخطر الفنون السبعة لكونه يتصدر منظومة عالية وخطيرة من تقنيات العملية الفنية الراقية للفن السابع جعله محط شد انتباه محبي السينما بشكل كبير ومؤثر.

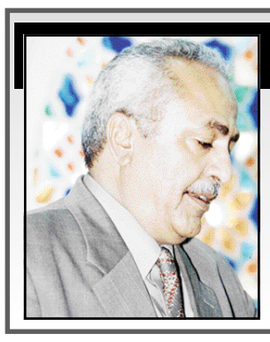

فيصل سعيد فارع :

شراكة مؤسسة السعيد مع هذا المهرجان عكس منهجها وعنايتها بالفنون

نشوان نعمان شمسان :

أهمية السينما المؤثرة تكمن في كونها أخطر الفنون السبعة

في قصيدة ذكريات شيخين للبردوني

الشجون ترسم صورة الماضي الجميل بنبرات الألم

دفاع صالح ناجي

من الممتع والهادف حقاً أن نجد الشعر معبراً عن تلك النزعة الإنسانية التي تلازم حياة الشاعر وتجعله أكثر قرباً من حياة أُناس دوت في أعماقهم تلك الانفجارات التي هزت كيان الشاعر وجعلته كتلة من المشاعر الإنسانية ذات التعبير البسيط الخلاب. وهذا ما نلمسه في قصائد الشاعر البصير عبدالله البردوني الذي غدا شعره رمزاً للتعبير عن الذات المنتصرة، تلك الذات التي اتحدت مع البسطاء من الناس في نسق قل أن يوجد، والتحمت مع قضايا الوطن بوجد عميق فكان لشعره تلك النضارة والقوة والألفة معاً. وهذه المعاني مجتمعة فنجدها متجسدة في قصيدة رائعة عبر فيها الشاعر على لساني شيخين عن تلك الشجرة الوارفة التي نستظل بظلها كلما شعرنا بحرارة شمس الحاضر، وقارب النجاة الذي يقذف بنا إلى الشاطئ كلما ارتفعت الأمواج فوق مستوى طاقاتنا... تلك هي الذكريات... احتياج لا غنى للنفوس البشرية عنه فهي إما الزاد أو الألم وكلاهما ملازمان لحياة كل منا.. ولأحاديث الذكريات نكهة خاصة وإمتاع فياض حين تنطلق من أفواه الشيوخ:

كان يا (عمرو) هنا بيت المرح ... زنبقي الوعد صيفي المنح
الطيوف الحمر والخضر على ... مقلتيه كعنا قيد البلح
كان مضياف إذا ما جئته ... شح كالفجر وكالورد نفح
ما انمحى يا لملتاقي بعدما ... نزح الرواد عنه ونزح
هاهنا نجلس يا (عمرو) نرى ... ما اقتنى التاريخ منا واطرح
خط آثار خطانا زمن ... بيديه وبرجليه مسح

لقد نزح الرواد عن بيت المرح، فماذا بقي غير التذكر والأسى لذلك البيت المضياف الذي تحمل له الذاكرة كماً مزدحماً من الذكريات التي لا يمكن حشدها.

ماذا بقي غير الألم الذي زرعه التاريخ حين تنكر! وشعاع فجر المكرمات حين غاب! وطيوف ورود وعناقيد بلح رحل موسمها، ولقاء محت موعده السنين! ولأن الحسرة لا تنصف متألماً، ولان الإنسان يمتلك رصيداً آخر من الذكريات، فحين تضيق به الأيام ويقابل فيها حوادث تضيع في مقابلها الكلمات، يلجأ إلى ذلك الرصيد الآخر عزاءً لنفسه ورحمةً بها:

فاذحنى (عمرو) وقال اذكر لنا ... يا (علي) الأمس واترك ما اجترح
أمسنا كان كريماً معدماً ... وزمان اليوم أغنى وأشح
كيف كنا ننطوي خلف اللحى ... ونواري من هوانا ما افتضح
كيف كنا قبل عشرين نعي ... همسة الطيف وإيماء الشبح
ونغني كالسكارى قبل أن ... يعد العنقود أشواق القدح
ثم أصبحنا نشازاً صوتنا ... في ضجيج اليوم، كالهمس الابح
كل شيء صار ذا وجهين لا ... شيء يدري أي وجهيه أصح

فحين يكون الأمس طيب العيش، رائع الملامح.. فلابد للذكرى أن ترسم كل تلك الصور الجميلة التي تلامس الوجدان وترحل بالنفس الإنسانية إلى مشاهد رائعة من زمن تولى ومضت معه كل تلك المعاني الجميلة والقيم النبيلة التي أصبحت غائبة وأضحت مبتورة وأمست في ضياع.

يا علي انظر ألاح المنتهى ... المسعى ولا الساعي نجح
لم نعد نهنأ ولا نأسى ذوت ... خضرة الأنس، خبت نار الترح
أوخبا الحس الذي كنابه ... نطعم الحزن ونشتم المرح
لم يعد شيء كما نألفه لا انتهى ... فعلام الحزن أو فيما الفرح؟!

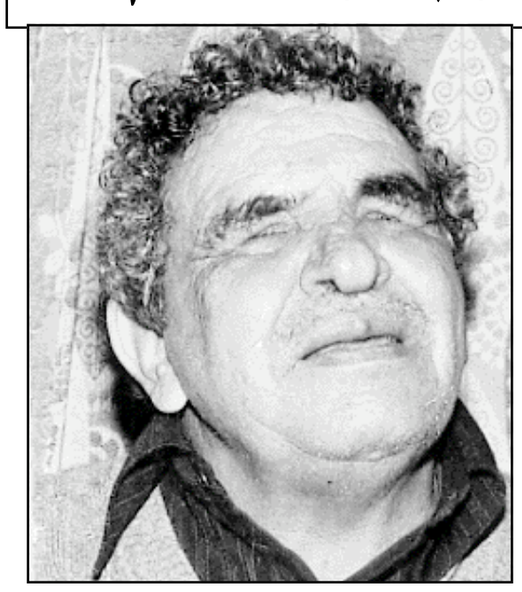

أنها لحظات لا يمكن اختزالها.. ومشاهد عالقة في ذاكرة الشيخين تلك التي وصفها الشاعر وصفاً مباشراً بسيطاً، معبراً عن تلك المرحلة الحياتية (الشيخوخة) بدقة وصدق وبنبرات ألم عميق تلامس الوجدان وتجعله يأسى على زمن (الشيخين) الذي رحل تاركاً طعماً للحزن ورائحة للمرح.

سيرة جديدة لجبران واكتشاف أوراق مجهولة له

الكاتب اللبناني جبران خليل جبران

بيروت / وكالات :

يحتفل لبنان وبعض البلدان العالمية بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيل الكاتب اللبناني جبران خليل جبران (١٨٨٣ – ١٩٣١). وقد صدرت في المناسبة كتب جديدة عنه وأقيمت ندوات حول أدبه.

الكاتب اللبناني الفرنكوفوني اسكندر نجار كتب سيرة جديدة لجبران بالفرنسية وصدرت ترجمتها العربية عن دار النهار بقلم الشاعر بسّام حجّار وعنوانها «جبران خليل جبران». وارفق نجّار السيرة هذه بكتاب آخر هو «أوراق جبرانية» صدر عن الدار نفسها ويضم رسائل ووثائق تنشر للمرة الأولى. وأشرف نجّار على صدور الأعمال الكاملة لجبران بالفرنسية عن دار روبير لافون في باريس.

هنا قراءة في الكتب الثلاثة. لو أردنا تلخيص ادب جبران خليل جبران، لاخذنا من كتاب اسكندر نجار «جبران خليل جبران» الآتي: «جبران وفكره يبدوان في المحصلة شديدي التماسك... فكل العناصر في أعماله تتزاوج في وحدة تامة». لا يسعنا اعتبار جبران «من أصحاب المؤلف اليتيم»، بحسب كاتب سيرته اسكندر نجار، لأن مجمل أدبه مشغول، وجميل، وان اختلف تصنيفه من مؤلف الى آخر و إن رددنا بعضاً منه الى مؤلفات كانت معروفة، لمؤلفين غربيين، كنيتشه وكيتس وهرمان هسّه وغيرهم، فجبران أصيل في كتاباته، لأن تلك آراؤه وإن تركزت على موضوعات معينة كالمحبة والحقيقة والطبيعة والله سبحانه و تعالى؟. وهي موضوعات اهتم بها غربيون سئموا ضجيج الآلات وأزعجهم الإغراق في المادية، فبحثوا في الديانات الشرقية والفلسفات الهندية، عن معين ضدها. جبران في النهاية استفاد من كل ما أحاط به كما من طفولته في حضن بشرّي قريته «ليصنع جبران» حتى يصعب تأطيره في إطار صارم ومحدود، لأنه تأثر بالجميع. وكان يحب ان يظل حراً في فكره كما مع نسائه. قد يكون جبران اشتهر غرباً وفي العالم بكتابه «النبي»، ولكن كتاباته الأخرى، ظلت «دستور» المراهقين، طوال فترة طويلة، خصوصاً في الشرق. ولو أردنا تلخيص حياته لقلنا ان الألم كان عنوانها والإحساس بالظلم. جبران تألم من سوء معاملة أبيه ومن فقد أمه وأخيه في فترة لم تتعد الستين. كان على العائلة ان تصارع الفقر ثم الغربة والفقر معاً وكان عليه ان يجهد كانه تحت الشمس. ولكنه في مرحلة متقدمة من عمره مجّد هذا الألم كما فعل بودلير وغيره من مشاهير العالم، وليس تقليداً، بل لأنه مسّ شغاف قلبه. ان الألم يطهر من النجاسات ويشفي أسقام النفوس المريضة. جبران اعتبران كل ما في الدنيا وجه لصورة سلبية (نيغاتيف). فالخير والشر يسيران معاً كما الجريمة والعقاب، ولهذا دأب الإنسان ان يوازن بين الأشياء حتى النهاية. لا يزال الجدل قائماً بين محبي جبران وناقدين حياديين حول رسمه. فالأوائل يريدون جبران تام البراعة، في الكتابة كما في الرسم، والآخرون يحكمون بأن جبران لم يهتم بالرسم تقنية يبحث فيها وتهمه نتائجها، بل كرديف لكتاباته. ونحن نميل الى تأييد الرأي الثاني. فقد أتيح لجبران ان يذهب الى باريس ليتلقن أصول الرسم، ولكن عدا تحسن تقنياته، فإنه لم يحسن الرسم، كعلاقة باللون والخط، بل وظفه لكتاباته. وكان مظهراً ثانياً من مظاهر حساسيته الشديدة، ووسيلة تعبيرية «أدبية» مغلفة بالخط والشكل. حكمُ المحللين على أعماله الفنية بأنه يصعب الحكم عليها خارج نطاق كتاباته، يؤيد هذا الرأي. ولولاحظنا ان جبران اعتمد ما سمي الرمزية الانطباعية كالفان الانكليزي وليم بليك والمرحفة ما قبل الرافائيلية، وان «هواه» بات يتداخل بين شخوصه كلما تقدم في الرسم، فيما كان حكم النقاد على «نبيه» بأنه هوائي صاف مفرط في بساطته، لفهمنا العلاقة بين تطور أدبه ورسمه. جبران نفسه قال ان «الفن خطوة نخطوها من المعلوم المرئي نحو المجهول. من الطبيعة نحو اللامنتهى». ولهذا لم يرسم عن الطبيعة ولم يسر مسار الرسامين المحترفين. رسمه لم يخرج عن مفهوم البدنيا وكان رسماً «ادبياً» أكثر منه تشكيلاً. احيط جبران بمن تفانوا في تشجيعه وان قست عليه الدنيا، وكان معظمهم من النساء. فالغالبية بينهن اغرمت به وأغرمبهن، وكان يقع عموماً في حب الأسن منه. ماري هاسكل هي الابرز بينهن، اهتمت بكل ما يخصه حتى بعد موته والى آخر يوم في حياته. كانت راعيته بكل ما في الكلمة من معنى. وكانت حاضنته مادياً وروحياً. جبران لم يتنقل بين النساء، ان شئنا حكماً حيادياً، بل كان حيث لا تأخذ علاقته بالمرأة مساراً محدداً، ينكفئ بكبرياء، ليسير في اتجاه آخر، من دون ان ينزع عن الحبيب الأول الاحترام والتبجيل. قد تكون صلته بمي زيادة، من ابرز تلك الصلات، لأن شخصيتها ايضاً أدت دورها في تلك الصلة. فقد كانت تواقة الى المثالية بعكسه هو الذي اختار ان تكون بين الحين مسافة، تتيح شيئاً من الحرية. مي خشيت الأ يوفي لها حب جبران ما تتوقعه منه، وهي على حق، ومع هذا يصعب النفي، ان ذلك الانجذاب الأثيري اليه، الخيالي، لأنه لم يقم على لقاء، لم يكن سبباً في عزوفها عن الزواج. كانت خيالية في حبها اكثر من كتاباتها، وكان واقعياً في محاولته شرح العلاقة بين الرجل والمرأة، اكثر من جموح خياله في الكتابة. ألم يقل في كتاب «النبي» عن الزواج: «ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين»؟ وهو لم يقصد بالطبع العلاقة الجسدية، بل هامش الحرية الذي يجب ان يحتفظ به كل منهما، فلا يذوب في الآخر. وفي ذلك رفض لفكرة الانجيل المثالية، كما وردت على لسان السيد المسيح(ع)، ان يصير الرجل وزوجته جسداً واحداً، على رغم ان جبران تأثر اكثر ما تأثر بالمسيح(ع). «نساء» جبران كثيرات، عُرفن تباعاً. سلطانة تابت، شقيقة من غدا يوماً رئيس جمهورية لبنان، أيوب تابت، وإليها يرد المحللون شخصية سلمى في «الأجنحة المتكسرة». ومنهن ميشلين أو اميلي ميشال الفرنسية التي قيل انها حملت منه وأجهضت. وينفي المؤلف عن جبران عقدة أوديب، لاختياره نساء اكبر منه سناً، لأن علاقة جبران بالمرأة كانت اكثر تعقيداً من هذا. اما عدم توصله الى علاقة جسدية بماري، فيمكن الاستنتاج من رسائلهما كما مما ورد في الكتاب، ان ماري نفسها كانت شخصية قائمة على التناقض ولم يكن السبب جبران وحده. بل حكمت العلاقة اعتبارات يوضحها اسكندر نجار في كتابه هذا. «جبران خليل جبران» كتاب شائق، تعدى ما كتب حتى الآن عن جبران، الى قراءة رسائل تبادلها حتى مع ناشره وليس مع نسائه فقط. حاول اسكندر نجار، وهو كاتب لبناني، صدرت له روايات ان يحيط بمجمل أعمال جبران، أدبياً وفنياً، وبتفاصيل حياته وفكره، وقد نجح الى حد بعيد. نقول هذا وقد أفمنا الكتاب بالتنبه الى عوامل عدة، شكلت شخصية جبران، جمعها المؤلف كلها، في كتاب حجمه صغير نسبياً، تشدك قراءته. هذا الكتاب الذي ترجم الى لغات عدة، يقدم جبران الإنسان لا «الهالة الجبرانية»، ولا يتجاوز الى الآراء الشخصية فيه. اسكندر نجار عوفنا بذاك القادم من جبال لبنان ليحط بوسطن، وكنا نظن أننا نعرفه في أواخر أيامه لازمته الناقدة في الـ «نيويورك تايمز» باربرة يونغ، وكرست أوقاتها له، وإن اتهمت لاحقاً بأنها تدخلت في كتاباته، خصوصاً الكتب الأخيرة، لضعف في لغته الانكليزية، وسببت ردود فعل ساخطة من أصدقائه. جبران التقى طاغور وأبرز من نالوا جوائز نوبل في أيامه، ولكن بقي ذلك الشرقي الذي يدعو أبناء أمته الى الافتخار بأصولهم كما الى الاستمداد من أفكار الغرب و«نوره»، من دون التنكر الى روحهم الشرقية. جبران كان حداثوياً شئنا ام أبينا.

اوراق جبرانية

هل يفترض ان يكون الناشر محسناً؟ لا. وهذا ما لاحظه جبران عندما كتَب عن ناشره ألفرد كنوبف: «كلما التقيت ألفرد كنوبف زادحبي له... ليس رجلاً محسناً... ولكنه رجل مستقيم، ولا يدع شيئاً للصدفة!» جبران اختصر شخصية ناشره بكلمات قليلة، تصف هذا الإنسان، الذي نشر كتابه «المجنون» بالإنكليزية بعدما رفضه ناشران قبله. ثم تابع إصدار بقية الكتب حتى كتاب «النبي» الذي لاقى نجاحاً عالمياً. ومما رفضت دار كنوبف نشره من كتابات جبران، مسرحيات قيل انها كتبت تأثراً بالكاتبة الاميركية جوزفين بيبودي، حب جبران الأول. كانت ركيكة الصوغ. جوزفين لم تهتم بمشاعر جبران ولم تبد له مثلها، ولكن الكتاب أورد قصيدة لها بعنوان «الأرز» لا يمكن ان تكون الا استيحاء من بلاد جبران، فهي لم تعرف تلك البلاد. قد نتساءل لماذا لم تقبل برجوازيات أميركيات كجوزفين وماري هاسكل الارتباط بجبران، وقد نجده في تفسير بسيط. هو إحجام فتاة من طبقة معينة، عن الارتباط بـ «غريب» ذي أصول متواضعة، نظراً لكل التقاليد، ومحيطها الذي تعلم انه لن يقبل أمراً كهذا. وقد يعزلها عزلاً غير مقصود. في الكتاب ايضاً رسالة الى اميل زيدان، صاحب «دار الهلال» في مصر، يتدخل فيها جبران، كما مع دار كنوبف بأدق تفاصيل كتابه «دمعة وابتسامة»، حتى شكل الحرف. ويعتذر فجبران فيها، خلافاً لرسائله الاميركية، عن هذا «التطفل»، الذي قد يبدو كذلك، في عرف «إميل افندي»، وما ذلك الا لتمييز جبران نوع العلاقة التي تقوم بين غربي أو شرقي. وفي هذه اللفتة ذكاء وحس فريدان من جبران. بربارة يونغ أو هنرييتا بوتوز حاضرة «سلباً» في الكتاب، عبر رسالة وجهتها الى دار كنوبف تعترض فيها على نشر «الأجنحة المتكسرة» مترجماً، وتعتبر أفكاره من بدايات جبران التي يجدر عدم استعادتها! بربارة تبدو شخصية متسلطة، تؤكد ما قيل عنها من تدخلها في كتابي «حديقة النبي» و «التائه» واعادة صوغ بعض منهما، وهو دور بالغت في أدائه، بعدما عملت على مساعدة جبران في السنوات الست الأخيرة من حياته. فتخطت دور المساعدة التي تنظم الحفلات الأدبية، الى حصر جبران بكتاب «النبي»! ويتر باينر، تعرف اليه جبران في نيويورك وراسله، ولا بد من ان صداقة كان يحسها الأدب الصيني وزار اليابان، أي ينتمي باهتماماته الى نطاق اهتمامات جبران. تعبير «حبيبي ويتر» جعل البعض يكهن بأمور غير مألوفة، لأن ويتر كان مثلياً جنسياً، ولم يخطر للمتقولين ان الروح الشرقية، عند جبران كانت تعبر عن مودتها. فلو قرأوا ان جبران قال في بداية كتاباته الإنكليزية لماري هاسكل، انه لا يزال يفكر بالعربية، لفهموا السبب. وهم على اي حال لا يعرفون اننا قد نكتب للصديق «الحبيب فلان» كتاب «أوراق جبرانية» هو استكمال لسيرة جبران، ويمكن وضعه خلف الأول، لقراءة مباشرة، فيها الكيفية التي يخاطب بها جبران أصدقاءه ومن عمل معهم.

في الذكرى الـ 11 لرحيل جبرا إبراهيم جبرا

الخليل/ سمير حاج

رحل جبرا ابراهيم جبرا وجميل فران ما زال من بغداد يعيش القدس ذكرى وحلما مرا. "لقد نسيت أسفاري، وما عدت أستطيع أن أذكر ملامح أية مدينة في العالم سوى مدينة واحدة. مدينة واحدة أذكرها، أذكرها طيلة الوقت. تركت جزءا من حياتي مدفونا تحت أنقاضها، تحت أشجارها المجرحة وسقوفها المهدمة، وقد أتيت الى بغداد وعيناي ما زالتا تتشبثان بها القدس "صيادون في شارع ضيق"، دار الآداب، بيروت ,١٩٧٤ ص. ١٦-١٥) هذا الفلسطيني التائه مثل أبطال رواياته، والمؤمن بفكرة " الإنسان الكوني " الرافض مقولة هاملت الـ رهيبة على حد تعبيره- " إني والله لأستطيع أن أحصر في قشرة جوزة، واعد نفسي ملك الرحاب التي لا تحد، لولا أنني أرى أحلاما مزعجة " (تأملات في بنيان مـ رمري، رياض الريس – لندن، ص. ١٣١)، لم ينل ما يستحقه من نقد وتقدير الجوانب، رواية ونقدا وشعرا. هذا المبدع، صاحب البنيان المرمري في الرواية العربية المعاصرة، وأحد أبرز الأصوات الروائية العربية الناجحة في استيعاب تقنيات الرواية الغربية وتوظيفها خاصة الـ رؤى المتعددة " Points of View " والارتجاع Flashback والاستباق Anticipation، بقي جنديا مجهولا في عالم يرقص فيه أنصاف المثقفين، وأصحاب الاقلام الرديئة. عاش جبرا بعيدا عن الأيديولوجيات، ظانا منه، أن الأدب في مجتمعنا فوق التجزيئية، والخطابية الجوفاء. لم يكن جبرا طائرا يغني في غير سربه، بل كان في طليعة السرب، ذو صوت مثقل بالمأساة الفلسطينية والهم العربي.

جبرا ابراهيم جبرا

كان جبرا روائي الأرض، ولم يكن روائي الكواكب الوهمية، فالسفينة رغم مدلول عنوانها البحري هي رواية الأرض والجذور، تتلاحم وتتفاعل فيها الأصوات العراقية والفلسطينية، وتحكي الهم والوجع العربي الإقليمي والعام، فعصام السلمان المهندس العراقي وخريج أكسفورد. بعد ان حرم الزواج من لمى عبد الغني، زميلته في أكسفورد، بسبب نزاع عشائري، يقرر الهرب منها عن طريق رحلة قصيرة، يقوم بها لمدة اسبوع على ظهر (الهركيوليز). إحدى سفن الـ نزهات البحرية الـ يونانية، التي تسافر من بيروت الى أثينا ومن ثم الى نابولي. حيث سيقلع من هناك في طائرة الى لندن. وفي السفينة يلتقي عصام من حيث لا يدري، مجموعة من الهاربين أبرزهم لمى عبد الغني، التي خططت لهذه الرحلة كي تلتقي عصام، وتعيش معه عواصف جنسية في قمرة السفينة، على مسمع من زوجها فالح عبد الغني، الذي إنتحر بشكل مدروس على غرار " ابالسة" ديستويفسكي، بعد ان عاش مأزوما مهزوما.

إن جبرا في السفينة ، رفض هجرة المثقفين العرب. رغم غياب الحرية الفكرية في العالم العربي ورغم القمع والتعذيب، هذا ما يقوله وديع عساف لعصام السلمان في نهاية الرواية، أثناء التحضير لنقل جثمان فالح الى بغداد " حريتك هي في ان ترفض الهرب حريتك هي في ان تكون مهندساً في أرضك- مهما ضاقت بك وتفننت في إيذائك " (ص ٢٣٧). كما رأى في الغربة "أوجع اللعنات".

لقد حملت السفينة الهم العربي قاطبة، وقدمته بجمالية روائية مميزة، من خلال أتباع تشظي الزمن واعتماد الأصوات المتعددة. Polyphonic Novel فمحمود الراشد، الأستاذ الجامعي الذي تعرض للأضطهاد والتعذيب بسبب نشاطه السياسي ينهار حين يشاهد النادل اليوناني في السفينة، متوهما أنه نمر العجمي، رجل المخابرات، الذي عذبه في السجن .. نمر العجمي يا وديع، شهريان كاملان، ستون يوما عذبني بالكرباج، وعلقني بالمروحة. وحبسني في المرحاض، وسقاني بولي.... أما رأيته في ثياب ملاح يوناني !" (ص ١٣٦)

لقد عالج جبرا في السفينة قضية الأرض والجذور، فعصام السلمان الهارب الأول والحقيقي في السفينة، يهرب من أرضه وجذوره، لأنه يرى فيهما لعنة وجريمة، بسببهما قتل والده عم لمى، لذا باع معظم أرضه " فرحا وطربا"، وقرر الهرب الى الغرب. أما وديع عساف الفلسطيني، المحروم أرضا، يرفض فكرة الهرب والهجرة، وهو متعلق بالأرض والجذور.

وقد قال جبرا في موضوع الهروب من السفينة "أن الهروب من السفينة عنصر أساسي طبعا، فأنا أصور أناسا يهربون، ولكنهم في النهاية يكتشفون أنهم لا يستطيعون الهرب، أو أنهم يجب ألا يهربوا، أو أن خلاصهم يكمن في العودة إلى أرضهم، في العودة الى الصخر، والصخر هو كل شيء، ولذلك وضعتهم في سفينة بعرض البحر، هؤلاء عزلوا أنفسهم، وأبحرت بهم هذه السفينة في المياه، من مدينة إلى مدينة، فكأنهم يتصورون أنهم يستطيعون أن ينسوا تجربتهم الحقيقية، تجربتهم التي هي أعماق كيانهم، ولكنهم اكتشفوا انهم يحملون تجربة الصخر في انفسهم، وأن خلاصهم في النهاية هو أن يعودوا، وألا ينتحروا كما انتحر فالحلأنه لم يستطع أن يعود. وخلاص العربي هو في عودته الى الصخر، في مجابهة قضيته في بلده" (الفن والحلم والفعل، بيروت: المؤسسة العربية ,١٩٨٨ ص ٤٨٨-٤٨٩).

لقد انحاز جبرا الى الشخصية الفلسطينية وجعلها مركز الدائرة والمحرك الأساسي في المجتمع العربي الغريب. هذا ما تجسده شخصية وديع عساف في السفينة ووليد مسعود في البحث عن وليد مسعود، فوليد مسعود مصبوغ بهالة من الأسطورية "فوليد أنما هو ذالك الفلسطيني الرافض، الرائد، الباني، المتوحد، (أذا كان لأمتي أن تتوحد)، العالم، المهندس، التكنولوجي، المجدد، المحرك للضمير العربي بعنف" (ص ٣٢٢).

ومن ناحية فثانية صور جبرا المآسي والعقبات التي تحول دون تنقل الفلسطيني، من بلد الى آخر "لقد كانت مصيبة الفلسطيني لا النفي عن مسقط رأسه فحسب، بل الصعوبة المفروضة عليه في التنقل من بلد إلى بلد" (البحث عن وليد مسعود، ص ١١٠).

هذا المبدع صاحب الـ فن القصصي، الروائي، القاص، الشاعر، الناقد، الرسام، المترجم الحاذق الذي أغنى المكتبة العربية بروائع شكسبير وفوكنر وجيمز فريزر والكسندر أليوت وبيكيت ولافونتين وغيرهم من أساطين الأدب العالمي هو ذاك الطفل المثير في البئر الأولى. إنه في الخامسة من عمره، حافي القدمين، يتعلم في مدرسة الروم الأرثوذكس في بيت لحم، بين خمسين صبيا من اعمار شتى، في غرفة واحدة، وعلى يد معلم واحد. والده عامل بناء فقير، لكنه يحفظ الكثير من الحكايات الشعبية، المستقاة بأغلبها من ألف ليلة وليلة، والتي رواها على مسمع جبرا الطفل، غارساً فيه من حيث لا يدري، البذرة الأولى التي نمت واصبحت شجرة ثقافية باسقة. لقد كتب مكسيم غوركي في رائعته طفولتي : " ولكن الحقيقة فوق كل نزوة شخصية، وأنا لا أكتب هذا عن نفسي، بل عن تلك البيئة الخانقة الرهيبة التي كان يعيش فيها، وما يزال، الروسي العادي". (طفولتي، بيروت: مكتبة الحياة، ص ٢٠).

إذا كان الكاتب الإنساني غوركي قد وصف معاناته ومعاناة باقي البشر، من الأمتهانات والآلام الأنسانية بدءا بوصف غربته في بيت جده، وغربة البشر في موطنهم الأم، وعداوة جده الخانقة الذي لا يكف عن جلده وضربه، وصراع خاليه واقتتالهما على أملاك جده وصور الفقر والجوع، وذل وعذاب الفلاحين وشقاء والدته وبؤسها في دار أبيها، وغيرها من الأهوال التي لقيها في طفولته، والتي تجسد تلك البيئة الخانقة التي عاشها الروسي العادي، فإن جبرا في البئر الأولى يرصد الطفولة القاسية التي عاشها الفلسطيني التلحمي في العشرينيات من القرن الماضي. رحل ذاك الطفل التلحمي في البئر الأولى والذي شمخ وأصبح أنموذجا للمبدع العربي الموسوعي في القرن العشرين.